في التراجيديا العراقية

ننأى عن قصد، ولو قليلاً، من لغة الأرقام والاشياء، ومنطق القوة وصراع المصالح، وعوامل التاريخ والجغرافيا. لنستذكر العراقيين كمواطنين. فذلك على خلاف ما عوَّدنا عليه الخبر العراقي في زمن الاحتلال. كما ننأى، وإن قليلاً ايضاً، عما نراه ونسمعه ونشاهده عن أحوالهم، حيث يجري التعامل معهم كأرقام، أو ككتل بشرية قابلة للضم والإلغاء، أو للجمع والحذف أو للإلحاق والاستلحاق، في مختبرات الصراع على العراق، وموارده، وثرواته، وتاريخه العريق.

قبل كل كلام عن العراق ينبغي ان نذكِّر بأن الآلاف التي شرَّدها الاستبداد أضاف إليها الاحتلال عليها آلاف مؤلفة. منهم من أُطلِقَ بلا راعٍ في فضاء البطالة، ومثلهم من لا امل له بالحد اليسير من مستلزمات البقاء. احياء بغداد المبسوطة على الخراب المفتوح. المدن والقرى. المناطق المنكوبة في طول البلاد وعرضها. اطفال حُرِمُوا من ابسط ما يستحقون من أوّليات الحياة. الا من نصيبهم الوافر من الموت عنفاً، أو من أوبئة الحرب التي عمَّت وانتشرت في سياق رهيب من اللاّمبالاة وحكايات الموت اليومي.

هذا العراق، عراق الحرف الحميم، عراق النص المقدس وما قبل المقدس، عراق القارئ في أحاجي المبتدأ والخبر، يدفعنا دفعاً نحو ضرورات التأمل بأعراضنا. وانتاج السؤال في السبب الأصلي لتلك الأعراض، والشك بمألوف ما يقال، والتساؤل النقدي عما ينبغي علينا أن نفقه أبعاده وخلفياته.

❖ ❖ ❖

أما كلام «**مدارات غربية**» عن العراق فهو على ما وجدنا، سيكون صدىً لآلامه. وتهجية لآثار الاستبداد والاحتلال التي أبتلي بها..

لقد خَبِرنا من تاريخ الولايات المتحدة الاميركية وأوروبا، بأنه لا ديمقراطية إلا على اساس يفترض حالة فراغ السلطة، ما يُحتِّم على الافراد ـ وليس المؤسسات ـ المحكومين بقلق الموت والتدمير من جهة اولى، والمشدودين فيما بينهم برباط التنازع من جهة ثانية، على التفاوض، وعلى التنازل المتبادل عن

وسائل العنف، ما يفضي إلى خفض التوتر بين الافراد والجماعات وإلى تهدئة قلق الاندثار هذا، وكذلك إلى إيجاد «عقد» سياسي جديد، اختلافي طبعاً، ولكنه عقدٌ خلاق وأكثر أمناً.

ما نشهده اليوم في حقول المأساة العراقية يعود في أحد وجوهه إلى الاحتلال وتداعياته. هذا الاحتلال الذي سطا على السلطة، راح يعمل جاهداً، كما عمل نظام الاستبداد من قبل على ايجاد مؤسسات، ومواقع ضغط، تشتغل على تجريد المواطن العراقي من القدرة على التعبير عن إرادته الجماعية والفردية، وزجها حصرياً في مأْسَسَة فوقية، قهرية للسلطة، بشكل لا يؤدي فقط إلى ديمومة سطوة المحتل وتأبيدها، وانما ايضاً - وهنا الاخطر - إلى إطفاء جذوة ارادة المواطنية في الانعتاق والسيادة.

لقد تعرَّفنا من ديمقراطية الغرب في كونها تقوم على اخضاع المؤسسات وحتى مؤسسات الدولة نفسها، لإرادة الافراد المقوننة وليس العكس. فهي تؤمن لهم الحماية من جهة اولى من الشطحات المؤذية للمؤسسات الاجتما - سياسية، ومن جهة ثانية فإنها تخفف عنهم من ثقل الاطر التقليدية والموروثة.

وعرفنا أن مصدر الحيوية التي تمتاز بها المجتمعات الغربية حالياً يعود تحديداً إلى هذه النقلة الخلاَّقة في الفلسفة السياسية التي احدثتها الديمقراطية في سياق تطورها، عنينا بها: حماية الفرد، وتعزيز احساسه بالمسؤولية المجتمعية، وبالتالي وضع «جبروت» المؤسسات على أرض يحكمها مبدأ الثواب والعقاب.

أما ما نراه من محاولة إستنساخ للديمقراطية في العراق، فمرجعه إلى احتلال يفتقرإلى الحد الأدنى لأية شرعية. فيما هو يترجم نفسه بلغة مقلوبة، تجعل كل شيء ضمن نظام متكامل من السلوك اللاأخلاقي في ادارة الحرب والسلام. ذلك ما سيجعل طائرة الأباتشي القاتلة مجرد قنبلة دخانية، مستلحقة على عجل، في مشروع السيطرة على موارد البلاد الاقتصادية الطبيعية.

وإلا فما معنى ان يكون اول وآخر المعالم في العراق والذي تحول إلى «مكان آمن» هو وزارة النفط. ثم ما معنى أن يكون البناء الوحيد الذي تم ترميمه واعادة تأهيله من قبل الاحتلال، ليس مدرسة، أو مستشفى، أو محطة لتكرير المياه، أو

للصرف الصحي، وانما سجناً للتعذيب والفضيحة.

❖ ❖ ❖

مثلما كان من طبائع الاستبداد أن يئد سيادة الأفراد في وطنهم، كذلك يفعل الاحتلال وإن بوسائط اخرى. فالمواطن العراقي في ظلال الاحتلال هو مواطن محتل بامتياز. وحريته الفردية بوصفها حجر الأساس لكل ديمقراطية، طفقت معدومة ما دامت خاضعة لاحتمال الموت اليومي. فقط عندما يجتاز المواطن العراقي دائرة الشعور بالموت المحقق، أو بالاعتقال، يمكن الكلام على أمل بديمقراطية حقيقية للعراق واهله. غير ان الخوف من عقاب يدنو من العراقي كل لحظة، سوف يجعل من استمرارية المستبد الجديد ممكنة، بل يجعلها راهنة وواقعية. لا سيما حين يمضي في تعميمه لهذا الشعور بين ضحاياه.

في عالم الاستبداد، المواطنون يعيشون رهن الخيار المميت: إما جبروت الحاكم أو الخراب. اما مع الاحتلال فيُسجن المواطنون بمعادلة جهنمية: بطشنا أو حربكم الاهلية، وفي كلتا الحالتين فإن ارادة وانعتاق المواطنين هما موضوع القهر. وفي كلتا الحالتين ايضاً يبدو المواطن في وحدته وتوازنه هو موضوع الإطاحة والإقصاء.

سواء واجه العراقيون الاستبداد فيما مضى، أو أنهم يواجهون الاستبداد المركب اليوم، فانه سيظهر للجيل العراقي الجديد، مدى ضعف العالم امام منطق القوة القاهرة، ومدى هشاشة القيم، وخواء حكاية «الانسان الأعلى» التي اطلقها التنوير قبل قرون.

منذ زمن بعيد كان العراق، ولما يزل يشد الرحال نحو ترميز الملتقى الانساني في عفويته وبساطته ووحشيته، أو بعجزه عن أن يكون غير نفسه. كما لو أن الانسان يظهر في عالم اليوم بضعفه ونقصانه، لا بقوته واكتماله. كما لو انه يظهر ويعبِّر عن هويته بجزعه امام الآخر - المختلف. العراق لما يزل يُرمِّزْ لنا جرحنا كل يوم في المرآة، فنهتاج كطفل مذعور امام الغريب - الشبيه.

سلام للعراقيين وخشوع للعراق.

WIF sb ` UL bL fi